(١)

كيف يصبح المصرى عملة صعبة*

تصدير المصريين إلى الأسواق العربية، أى تصدير العمل المصرى لهذه الأسواق، يحتل إلى الآن المكان الأول فى قائمة الصادرات المصرية وما تجلبه هذه «السلعة» من عائد يعتبر جزءًا أساسيًا من الثروة المصرية القومية، ولكننا لا نحسن التصرف فى هذه السلعة. لأننا نصدر المصرى غفلا دون تصنيع أو إعداد، ولهذا فإن العمل المصرى عملة سهلة فى الأسواق العربية، ولو أننا أعددنا المصرى للعمل فى الخارج وأهلناه لذلك التأهيل اللازم لأفاد من نفسه ومن عمله أضعاف ما يكسب الآن ولأصبح المصرى عملة صعبة فى تلك الأسواق.

من النظريات السليمة فى فلسفة كارل ماركس قوله: إن العمل سلعة كغيرها من السلع، تباع وتشترى، والعامل الذى يعمل فى مصنع يملكه رأسمالى أو رأسماليون يبيع فى الحقيقة السلعة التى يملكها – وهى حرفته أو مهارته الفنية – مقابل الأجر الذى يتم الاتفاق عليه بينه وبين صاحب العمل.

وقد دعا كارل ماركس وصاحبه فريدريش إنجلز فى المانيفستو أى البيان الذى أذاعاه سنة ١٨٤٨م العمال إلى الاتحاد لكى يستطيعوا التفاهم مع أصحاب رءوس الأموال وإرغامهم بالقوة على منح العمال الأجور التى يستحقونها لأن العمل فى الحقيقة هو الذى يعطى السلعة المصنوعة قيمتها، والمادة الخام فى الحقيقة قليلة القيمة إلى جانب ثمنها عندما تصنع آلة أو ماعونا أو قماشا.

وهذا كله كلام كان معقولاً فى حينه، لأن الحركة الصناعية عندما قامت فى الغرب قامت على رءوس أموال ضخمة وكان أولئك الرأسماليون

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٠ يناير ١٩٨٢م.

مستبدين حقًا فقد كانوا هم السند الأكبر للاستعمار، فكانوا يستغلون أهل المستعمرات استغلالاً بشعًا، وكانوا يعاملون العمال معاملة بشعة لكى تتضخم صناعاتهم.

فى وقت من الأوقات أصبحت الشقة بين صاحب العمل والعامل واسعة جدا، وأصبح العامل زراعيا كان أو صناعيًا شيئًا قليلاً جدًا أمام صاحب رأس المال، وأصبح هذا يفرض عليه الأجر الذى يريد أن يشترى عمله بالثمن البخس لبيع السلعة بعد ذلك بالثمن الذى يريد ولم تكن هناك تأمينات على العمال أو الصحة، ولم يكن هناك ما يحمى العامل من العوز المهين إذا أسن وتعطل عن العمل.

كانت للإصلاح الاقتصادى والاجتماعى إذن ضرورة ولكن الخطأ جاء من أن المانيفستو دعا العمال إلى الثورة لكى يحصلوا على حقوقهم، وكان يمكنه أن يدعوهم إلى البدء بالتفاهم بالعقل والحكمة والأخذ والرد، فإذا لم ينجح ذلك كان للعنف والثورة مكان، أما الدعوة إلى العنف منذ البداية وتصوير الأمر على أنه صراع طبقات العمال فى ناحية وأصحاب الأعمال فى ناحية أخرى، فغير صحيح، ثم إن القول بأن أصحاب رءوس الأموال كلهم شياطين، وإن العمال كلهم ملائكة تضليل مقصود، لأن أصحاب الأعمال والعمال كلهم بشر وفى هؤلاء ملائكة وشياطين وناس بين بين وفى أولئك أيضًا ملائكة وشياطين وناس بين بين، فأما شياطين الرأسماليين فنحن نعرفهم، وأنا شياطين العمال فنحن نعرفهم اليوم وهم المهملون والمتهاونون والمخادعون فلا توجد فى الحقيقة طبقات ولا حرب طبقات إنما كان هناك اختلال فى فهم أسس الاقتصاد وسوء تقدير تقليدى للعمل وقيمته..

وكان من الممكن الدعوة إلى التفاهم قبل الدعوة إلى العنف، ففى إنجلترا مثلاً تم الإصلاح بالتفاهم والتفاوض وأصبحت نقابات العمال هيئات رسمية

تحميها الدولة، واستطاعت هذه النقابات أن تحقق التوازن المطلوب في معظم الأحيان، ولكن كارل ماركس كان رجلاً دمويًا فدعا إلى الثورة والتحطيم والتخريب وكان الذى تولى تطبيق مبادئه فى روسيا وهو لينين – رجلاً غاشماً مستبدًا لا يعرف التفاهم ولا يحترم أحدا.

وقد بينا فى مقالاتنا عنه كيف إنه وضع نفسه مكان القيصر وحكم روسيا حكمًا استبداديًا، هو أعنف من استبداد القياصرة وعلى يدى لينين خرج العمال الروس من سجن القياصرة إلى الأشغال الشاقة المؤبدة تحت إشراف رجال الحزب الشيوعى.

وقضية أخرى أخطأ فيها كارل ماركس خطأ شريرًا مقصودًا، وهو قوله بأن الدين وسيلة استبعاد فى يد جبابرة السياسة والمال، وإنه لابد من إلغائه وإحلال الفكر الشيوعى مكانه ليصل العمال إلى حقوقهم، ولا دخل للدين فى هذه القضية أصلاً فالدين فى ناحية المعاملات – يقوم على العدل والإنصاف ويعترف بالعمل ويعطى العامل حقه وصاحب العمل حقه، والقرآن بالذات دقيق جدًا فى هذه الناحية فهو يقول فى سورة الشعراء الآيات ١٨١ – ١٨٣ ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ وليس هناك أبلغ من ذلك فى تقدير قيم الأشياء ومنها عمل العامل.

ولا معنى إذن لاتهام الدين أو الدعوة إلى الخروج عليه لتحقيق العدالة، ولاشك أن الهجوم على الدين هجوم مقصود جاء من ناحية الصهيونيين وهم أصحاب الدعوة الشيوعية أصلاً، وهدفهم من إقحام الدين فى الموضوع كان إضعاف الشعور الدينى المسيحى أولاً ثم الإسلامى ثانيا خدمة للقضية اليهودية.

وأظن أننى ذكرت مرة أن كارل ماركس له كتاب يسمى «الدولة اليهودية» (دى يوبيدش شتات) وأتباعه يحاولون إخفاء ذلك الكتاب لهذا

استباح كارل ماركس لنفسه عبارات وقحة هـى فـى ذاتـها جـرأة واضحـة على العقل الإنسانى، مثل قوله: إن الدين أفيون الشـعب، أو أنـه المخـدر الذى استعمله الظالمون والطغاة لإقناع النـاس بالرضـا بنصيبـهم القليـل مـن الحياة.

ثم جاء لينين وكان - كما بينا فى مقالاتنا عنه - إنسانًا عنيفًا أنانيًا دمويًا فاجتهد فـى إزالـة الأديـان ووضـع نفسـه مكانـها وفـى كـل البـلاد الشيوعية يضعون تماثيل لينين وصوره الضخمة فـى كـل مكـان ويقدسـونه كمـا يقـدس البوذيـون بـوذا، فكأنـهم وضعـوا معبـودا إنسـانيًا مكـان الله سبحانه، ولا يوجد أحد يصدق مـا يقولـه الشـيوعيون عـن الأديـان حتـى روسيا نفسها، ولكن الناس يخافون.

وهاهى ذى بولندا قد حطمت تمثال لينين وصورة كارل ماركس وعـادت إلى الدين، وهى عندما فعلت ذلك استعادت شـعورها بشـخصيتها وسـارت حثيثا فى طريق تحرير نفسها وأراضيها من ذل الخضوع للحزب الشـيوعى وليش فاليسا يلقى كل التأييد من البولنديين لأنه فى الحقيقة أول من جرؤ على تحطيم صنمى ماركس ولينين واقتحـم معقـل الرهبـة الـذى أحـاط بـه الحزب الشيوعى نفسه فى كل بلد سادته مبادئ الشيوعيين.

ومن الغريب أن الشـيوعيين رغـم زعمـهم الكبـير أنـهم يقدسـون العمـل والعمال لم يسـتطيعوا تحويـل بلادهـم إلى مراكـز صناعيـة إلا فيمـا يتصـل بأدوات التخريب والدمـار، أمـا فـى كـل الصناعـات التـى تخـدم البشـر، فمازالت البلاد التى توصف بأنها رأسماليـة هـى التـى تقدمـه للنـاس مـن الأدوية ولعب الأطفال إلى السيارات والطائرات والقاطرات.

□□□

والآن ما دخل هذا الكلام كله فـى موضـوع المصـرى وتحويلـه إلى عملـة صعبة؟.

علاقته: أن الثروة الحقيقية التى منحها الله لمصر هى المصريون أنفسهم وإذا كان غيرنا يصدر البترول أو السيارات أو الماكينات أو الصناعات الزراعية، فإننا إلى الآن على الأقل نصدر المصرى نفسه، وهو سلعة التصدير الأولى بالنسبة لنا، فالمصريون منتشرون فى العالم العربى كله.

والدولة تربح من وراء هجرتهم وعملهم فى الخارج ربحًا لا بأس به، والمصريون المهاجرون أنفسهم يكسبون أكثر من ذلك بكثير فهم يحصلون على رواتب عالية، يدخرون جوانب كبيرة منها ويشترون منها لوازمهم، ثم يعودون إلى مصر فى النهاية بسيارات وأشياء أخرى كثيرة ما كانوا يستطيعون الحصول عليها لولا الهجرة والعمل فى الخارج.

ولكن الحقيقة أن هذا الذى يربحه المصريون من العمل فى الخارج أقل بكثير مما يمكنهم أن يكسبوه لأن السلعة التى يبعونها فى البلاد التى يهاجرون إليها - وهى عملهم - من الممكن تجويدها ومضاعفة أثمانها وبذلك تضاعف الثروة المصرية أضعافًا..

ذلك أننا نصدر المصرى إلى الخارج إذا استقام هذا التعبير كما هو دون صقل أو إتقان، ومن الممكن صقل المصرى المهاجر وإعداده إعدادًا خاصًا وتنظيم هجرته وحمايته من الأخطاء الجسيمة التى يقع فيها بجهله فتزداد قيمته ويصبح الآخرون هم الذين يطلبونه ويلحون فى طلبه بعكس ما يحدث الآن من إلحاح المصرى على الهجرة للعمل فى الخارج، ورضاه أحيانًا كثيرة بالأجور المتواضعة وخضوعه لمتعهدين يسمون الكفلاء يتاجرون به فعلاً، ومن بين مليون ونصف مليون من المصريين الذين يعملون فى السعودية مثلاً، لا أقل من مليون يعملون بأجور زهيدة جدًا ويرضون بشروط عمل مجحفة.

وليس معنى ذلك أن الآخرين يظلمونهم، بل هم يستغلون جهلهم فحسب، فالواقع أن المصرى يصدر إلى الخارج غفلاً كما هو دون إعداد أو

ثقل أو تدريب، ولو أننا أحسنا إعـداده وصقلـه ودربنـاه وعرفنـاه بـأحوال العمل فى الخارج وكيف يكسب الإنسان منه أعظم الكسب لتضاعفت ثروتنا القومية.

وليس معنى ذلك أننى أدعو إلى تدخل الدولة فى شئون المصريين فى الخارج، فإن الحقيقة أن الدولة لا تستطيع هنا شيئًا، بل ربما أدى تدخلها إلى مزيد من الضرر.

ذلك أن المصرى عامل مجد وإنسان موهوب قادر على الاستيعاب والتقدم، ولكنه مع الأسف ضعيف جدا فى موضوع كسب المال ومن بين ألوف المصريين العاملين فى البلاد العربية لا تجد إلا ثلاثة أو أربعة استطاعوا الوصول إلى الغنى مع أن المئات من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين أصبحوا أصحاب ملايين لأنهم يعرفون صناعة المال وكيف يحولون العمل إلى مال.

ولابد فيما أرى من إنشاء معاهد وظيفتها إعداد المصريين للعمل فى الخارج وإعطاؤهم الأسلحة التى يستطيعون بها خوض معركة العمل فى الخارج والفوز بأكبر نصيب من العمل فى الخارج إذا سنحت لهم الفرصة، ومن الضرورى أن نشترط الحصول على شهادات معاهد التأهيل هذه قبل أن يؤذن لهم بالعمل فى الخارج.

ذلك أننى لاحظت أن الغالبية العظمى من المصريين العاملين فى الخارج، إما عمال من مختلف المهن والتخصصات، وإما مدرسون وإما مهاجرون دون تخصص أصلاً، إنما هم يذهبون بعقود عمل لا تعطيهم إلا القليل ومن أسف أن أقرر أنهم المسئولون عن ذلك.

والمادة الأولى التى تدرس فى معاهد التأهيل هذه هى إعداد المصرى إعدادًا تامًا لعمل معين يعمله فى الخارج، وكل مهنة فى الدنيا حتى مهنة

الحمال وعامل النظافة تحتاج إلى إعداد أو اتقان للوصول فى ميدانها، أيا كان إلى أقصى درجة من الإتقان.

فالمصرى الذى يذهب مثلاً للعمل فى التنظيف ينبغى أن يتدرب على هذه المهنة ويتعلم أصولها. فإن التنظيف ليس مهنة حقيرة بل هو مهنة محترمة، لها اليوم أصول وأدوات وآلات وقد أدرك الكوريون والفلبينيون هذه الحقيقة، فهم يعملون - رجالهم ونساؤهم بمهنة التنظيف على أعلى المستويات وينظمونهم فى «أطقم» أو فرق. فتجد مطارًا عظيمًا فى السعودية مثلاً تتولى شئون تنظيفه شركة كورية.

وهذه الشركة ليست رأسمالية إنما هى شركات تعاونية من العمال أنفسهم تدربوا على العمل جماعة فى معاهد التأهيل، وقد رأيت بنفسى فرقة من أولئك العمال يقومون بتنظيف المطار والطائرات فى مطار البحرين فتجدهم قد تقاسموا المطار بينهم ونظموا العمل فيما بينهم ويشرف عليهم رؤساء منهم، يشرفون على عمليات التنظيف، فتجد رئيس النظافة فى كل قاعة من قاعات المطار واقفًا كأنه جندى يرقب إخوانه العمال وهم يعملون ولا يكاد يلحظ إهمالاً من أحدهم حتى يبادر إلى تنبيهه، ولابد كذلك أنه يستطيع توقيع العقوبة عليه.

وعندما تقف طائرة فى المطار لمدة نصف ساعة مثلاً تجد فرقة التنظيف قد دخلت، ولكل منهم عمل يتجه إليه رأسًا، وهناك رئيس من أولئك الكوريين واقف يرقب، بينما زملاؤه يقومون بتنظيف الطائرة فى سرعة وإتقان مستخدمين أحدث أدوات التنظيف ومواده.

والشركة التى يتبعها أولئك العمال هى التى تدبر لهم أمر السكن والحياة، وهى تحرص على مظهرهم وتراقب تصرفاتهم بغاية الاهتمام، وأى عامل منهم يتكرر منه الخطأ فالشركة هى التى تعيده إلى بلاده، ولا يمكن أبدًا أن تتركه حتى تطرده السلطات المحلية.

والذى استوقف نظرى هو الاستقامة الخلقية التى يتميز بها أولئك العمال الكوريون والفلبينيون والهنود والباكستانيون، والمصرى العادى رجل طيب عفيف فى الغالب. ولكنه مع الأسف الشديد ساذج متهاون، وإلى جانب أنه ليس متعلمًا لصناعة التنظيف، فإنه فى العادة غير مواظب على مواعيده وغير متقن لعمله، وهناك مع الأسف قلة من المصريين تسىء التصرف فتسرق أو تهرب أو تقوم بأعمال غير كريمة، فتجلب بأعمالها تلك الأذى لغيرها.

لهذا تجد هذه البلاد التى تستورد العمل تفضل الكوريين والفلبنيين والهنود والباكستانيين على المصريين، وهى التى تطلبهم للعمل، بينما المصرى هو الذى يطلب العمل دائمًا، ومتوسط أجر عامل النظافة المصرى من ستين إلى ثمانين دينارًا فى الكويت، وحوالى ١٥٠٠ ريال أو درهم فى البلاد العربية الأخرى، بينما يصل أجر الكورى إلى ضعف ذلك، ولا تسمع عنه فى كل مكان إلا مديحًا.

والمصرى أمين فى الغالب ولكنه متهاون فى تنفيذه للأمانة، بينما غيره يراعى ذلك بغاية الدقة، ولو أننا نبهناه إلى أن الناس فى الدنيا كلها متخوفون من ناحية الأجانب وهم لا يتسامحون فى أى عمل يشكون فى سلامته لحمينا المصريين فى الخارج من شر كثير ولساعدناهم على مضاعفة مكاسبهم.

وقد بدأت بعمال النظافة لأنهم مطلوبون جدا فى تلك البلاد سواء فى البيوت أو فى الهيئات العامة ولا عيب فى العمل فى النظافة أو الخدمة فى البيوت، وإذا أتقن هذا العمل صاحبه، وقام به على وجهه الصحيح لأصبح موضوع الطلب والاحترام فى كل مكان.

ولابد لنا من الآن من أن ننشىء المعاهد لهؤلاء العمال لتلقينهم الأصول الحلقية والمهنية التى لابد أن يلتزموا بها، وننظمهم فى جمعيات تراقب

عملهم وتوجههم، لتحسنت أعمالهم فى الخارج كثيرًا، وقد عرفت فى جدة رجلاً لبنانيًا بدأ خادمًا فى قصر رجل من الأثرياء، فمازال يترقى بفهمه وذكائه ووعيه حتى أصبح اليوم مشرفًا على فندق كبير أنشأه ذلك الرجل، وقد بدأ بألف وخمسمائة ريال من خمس عشرة سنة وأجره اليوم يصل إلى نحو مائة وخمسين ألف ريال فى الشهر، كل ذلك وهو لم يخرج عن مهنة النظافة والخدمة داخل البيوت، ولكنه رجل عرف كيف ينتفع من نفسه، ومن الفرصة التى سنحت له، وبدلاً من أن يبدأ عمله بسرقة الملاليم من بيت مخدومه زهد فى الملاليم، ورفع همته فوصل إلى الملايين..

□□□

هذا هو ما أريد أن أقوله: إننا نستطيع أن نجعل المصرى العامل فى الخارج وهو الآن عمله سهلة عملة صعبة. وينبغى أن أذكر هنا أن المصرى جديد فى عملية صنع المال. إنه رجل يعمل كثيرًا ويعمل جيدًا فى معظم الأحوال، ولكنه لم يتعلم بعد صنع المال، وهو فن سهل لمن يعرفون طريقه ومستحيل على من لا يعرفونه..

خذ مثلاً مهنة التمريض فى المستشفيات..

إنها مهنة مطلوبة جدًا فى العالم، ونحن هنا فى مصر فقراء فيها لا لأن التمريض مهنة صعبة، فالحق أنها من أيسر المهن، ولكنها تحتاج إلى شىء لا أظن أن الممرضة المصرية تعرفه، أو قل لا تقدره حق قدره، هذا الشىء هو حب المريض والسهر عليه والقيام بحقه.

وقد عرفت مستشفياتنا فى شتى مستوياتها، ورأيت أشكال الممرضات لأننى نمت على أسرة المستشفيات أكثر من مرة هنا، ثم أرادت لى صروف الحياة أن أدخل المستشفى فى الخارج وأجرى عملية، وخلال الليالى السبع التى قضيتها فى المستشفى ارتفعت فى نظرى الممرضة إلى مستوى

الطبيب، وعرفت فيما عرفت أن أجر الممرضة هناك يكاد يقترب من مرتب الطبيب المبتدئ.

وهناك فى البلاد العربية مئات المستشفيات فى حاجة إلى ممرضات، وممرضات مصر يبحثن عن عمل هناك، ولكنهن مع الأسف الشديد لم يعرفن كيف يفرضن أنفسهن على العمل ومكانهن تعمل الآن هنديات وباكستانيات وكوريات، وكل الناس يقولون إنهن أحسن من المصريات فى مهنة التمريض، وهذا حق مع بالغ الأسف، ولكننا نحن المسئولون.

ذلك أننا نعلم الممرضة ونعطيها شهادة التمريض دون أن نؤهلها نفسيًا وإنسانيًا ومعنويًا لتلك المهنة، فهى لا تخدم المريض بقلبها إلا فى النادر، بل هى تهمله وأحيانا تهمل دواءه وعلاجه وتكون قاسية عليه.

لماذا ؟ لأنها لا تعلم أنها إذا وضعت قلبها فى العمل ووهبت نفسها للمرضى استطاعت أولاً أن تحقق ذاتها وتكريم إنسانيتها واستطاعت ثانيا أن تكسب المال الكثير، إنهم يدفعون لها الآن ما يعادل - مثلاً - ٣٠٠٠ ريال أو درهم فى الشهر، ولكن من الكوريات والهنديات من يتقاضين ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ لماذا؟.

لأن الذين تخرجت على أيديهم علموها أصول المهنة على حقيقتها، ومهنة التمريض فى أصلها مهنة محبة وإخلاص وتضحية أولاً، ثم مهنة معاونة طبية ثانيا، والجانب الأول هو الأهم ولهذا فعندنا هنا فى مصر مستشفى رفيع يستخدم ممرضات أوروبيات ويدفع لهن حتى ٣٠٠ جنيه فى الشهر، لا للمعرفة الطبية وحدها بل للإحساس الإنسانى والحرص على علاج المريض واليقظة والمراعة الإنسانية هذا هو الذى أريده بالتأهيل.

إن معهد التمريض يعلمها الجانب الطبى الفنى، ولكن معهد التأهيل سيعلمها الجانب الإنسانى، معهد التمريض يجعلها تساوى ٣٠٠٠ ريال فى الشهر، ومعهد التأهيل يجعلها تساوى ٣٠٠٠٠ أو أكثر.

وقد حكوا وأنا أسمع عن ممرضة سورية كانت تعمل فى مستشفى فى بلد عربى، ثم كلفت بأن تسهر على تمريض عربى موسر فى بيته، فقامت بعملها على نحو أدهش الرجل، فأعطاها مليون ريال عندما شفى، واتخذها ممرضة خاصة له ولأسرته، وقدر لها راتبًا قريبًا من راتب طبيب كبير مع معاش شهرى عندما تصل إلى سن الإحالة إلى المعاش.

□□□

إننى أتحدث عن المستويات البسيطة من العمل المصرى فى الخارج، ولا أمس المستويات العليا مثل القضاء وأساتذة الجامعات والتدريس والهندسة، لأننى أعتقد أن هؤلاء ليسوا فى حاجة إلى كلامى وإن كنت أحس أن المهندسين بالذات ينبغى أن يتولوا من الأعمال أكثر من العمل فى خدمة الحكومات أو خدمة المقاولين من أهل البلاد أو اللبنانيين أو السوريين..

وما دمت قد أشرت إلى المهندسين، فلأنظر إلى الطرف الآخر من صف المصريين العاملين فى البناء، أقصد البنائين ومن إليهم من الفنيين..

فأما عن البنائين فلاشك فى أن البناء المصرى من أمهر بنائى الدنيا، فلماذا يفضلون عليه الآن الكوريين والفلبينيين؟..

ألقيت هذا السؤال على رجل عربى كبير من المشتغلين بالمقاولات، فقال فى حق عامل البناء المصرى كلامًا كثيرًا طيبًا ولكنه قال إنه ينتج أقل من الكورى ولا يأخذ العمل بالجد المطلوب ولا يبالى أن يترك عمله عند مقاول لينتقل إلى آخر إذا سنحت له فرصة كسب أكبر.

آلمنى ذلك ولكنى شعرت أننا نحن المسئولون.

فالبناء أو المشتغل فى عملية البناء المصرى عامل ماهر دون شك، وهو صبور على العمل ومتقن له إذا أراد، ولكن ينقصه التأهيل المعنوى وتفتح

الذهن حتى يعرف كيف يستولى على ثقة من يعمل معه، ويثبت له أنه ينتج أحسن وأكثر من غيره وأنه مهما كانت ظروفه رجل يعتمد عليه حقا، وانه بدلا من أن يذهب إلى البلد العربى مجرد بنا - مثلاً - ويعود مجرد بناء يستطيع أن يرتقى ويكبر و(يعمل فلوس) وعمل الفلوس كما قلت ليس تخصصا مصريًا، وأنا أريده أن يكون تخصصًا مصريًا، ولذلك سر بسيط، وهو أنك إذا أردت أن تعمل الفلوس.. الحلال استطعت أن تعملها إذا عرفت الطريق إلى ذلك.

وهذا هو الذى يستطيع عمله معهد التأهيل هذا إنه يستطيع أن يرفع القيمة الحقيقية لعامل البناء المصرى ويجعله سيد الكفيل الذى يتعاقد معه بدلا من أن يكون الكفيل هو سيده وولى أمره، وليس فى الدنيا ورجل أعمال لا يقدر العامل المتقن، العامل الأمين، العامل الذى يعتمد عليه، لو أننا علمنا عامل البناء المصرى تلك المفهومات الصغيرة لخرج من مصر عامل بناء صغير وعاد إليها مقاولاً صاحب مال عريض.

ولا أدرى لماذا نعلم أولئك العمال كيف يشتركون معا ويكونون جمعيات عمال مثل الجمعيات الكورية التى يتعاقد معها المقاولون فى البلاد العربية جماعة، وتجد المستشفى الكبير يعمل فيه مئات من أولئك الكوريين، وهم يعملون جماعة ولهم رؤساء من بينهم يراقبون، ولهذا تجد عملهم متقنا لا غبار عليه، والمقاول الذى يستخدمهم يثق فى أنه اعتمد على رجال جديرين بالثقة، ومادام هو يكسب الملايين فهو لا يستكثر عليهم بعض هذه الملايين، وقد قص على صديق طبيب سعودى يعمل فى مستشفى كبير كيف إن المقاول الذى أخذ مقاولة هذا المستشفى ربح من بنائه ٩ ملايين ريال، فأعطى منها لجماعة العمال التى أنجزت له العمل مليونين فوق المبلغ المتفق عليه، وتعاقد معهم جماعة ليقوموا بكل الأعمال فى مقاولاته، وقد بلغت مكاسب الواحد منهم ومدخراته خلال خمس سنوات نحو المائتى ألف ريال.

وهذا أيضًا نستطيعه نحن لو أردنا..

□□□

إن العامل المصرى فى الخارج أيا كان نوع عمله، من أستاذ الجامعة ومستشار القضاء إلى عامل البناء والعامل الصحى والممرض والطاهى والسائق.. كل هؤلاء ثروة مصرية كبرى، ونحن نكسب من ورائهم الكثير، وهم أيضًا يكسبون الكثير، ولكن ليصدقنى القارئ عندما أقول: إن ذلك العامل المصرى – على كل مستوياته – يستطيع أن يكسب أضعاف ما يكسب اليوم إذا نحن عنينا بتأهيله وتعليمه فن العمل الأمين المتقن المستمر وفن عمل الفلوس الحلال.

إن العامل المصرى اليوم عملة سهلة، وهم يتعللون عليه، ويتصرفون فيه كيف يشاءون لأنه لم يعرف بعد كيف يجعل الآخرين يشعرون أنهم أحوج إليه منه إليهم، إنه لم يتعلم بعد كيف يجعل من نفسه عملة صعبة يتنافس الناس عليها.

إن سكان هذا البلد هم رأس ماله الأكبر، ولو عرفنا كيف نؤهلهم للعمل والكسب – كسب الثقة وكسب الاحترام وكسب المال – لو علمناهم ذلك لكان لدينا فى الحقيقة مورد من الثروة القومية بعدل ما يحصل عليه الآخرون من البترول، لأن البترول نفسه لا يخرج من الأرض ولا يتصفى ولا يعبأ ويباع إلا بعمل العامل، فالعامل لا البترول هو المهم.

وهذا يعود بنا إلى ما بدأت به هذا المقال من أن العمل سلعة تباع وتشترى، بل هو السلعة التى تعطى السلع الأخرى قيمتها، فلتر اللبن الذى يحلب من البقرة فى سويسرا لا يساوى إلا قروشًا، ولكنه عندما يتحول إلى مسحوق لبن معبأ فى علبة متقنة محكمة يساوى جنيهات.

لماذا نترك أنفسنا للأقدار دوما؟.

لماذا لا نحول أنفسنا من عملة سهلة إلى عملة صعبة؟.